
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
كتاب شهري لليافعة
أعلام ومبدعون
٦٠
رفاعة الطهطاوي
بيان الصفدي



رَفاعة الطَّهْطاوي

بيان الصفدي

الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب – مديريّة منشورات الطّفل
وزارة الثقافـــة – دمشق ٢٠٢٢م

«خيرُ الأمور العلمُ، وإنه أهــمُّ كلِّ مُــهــمّ».

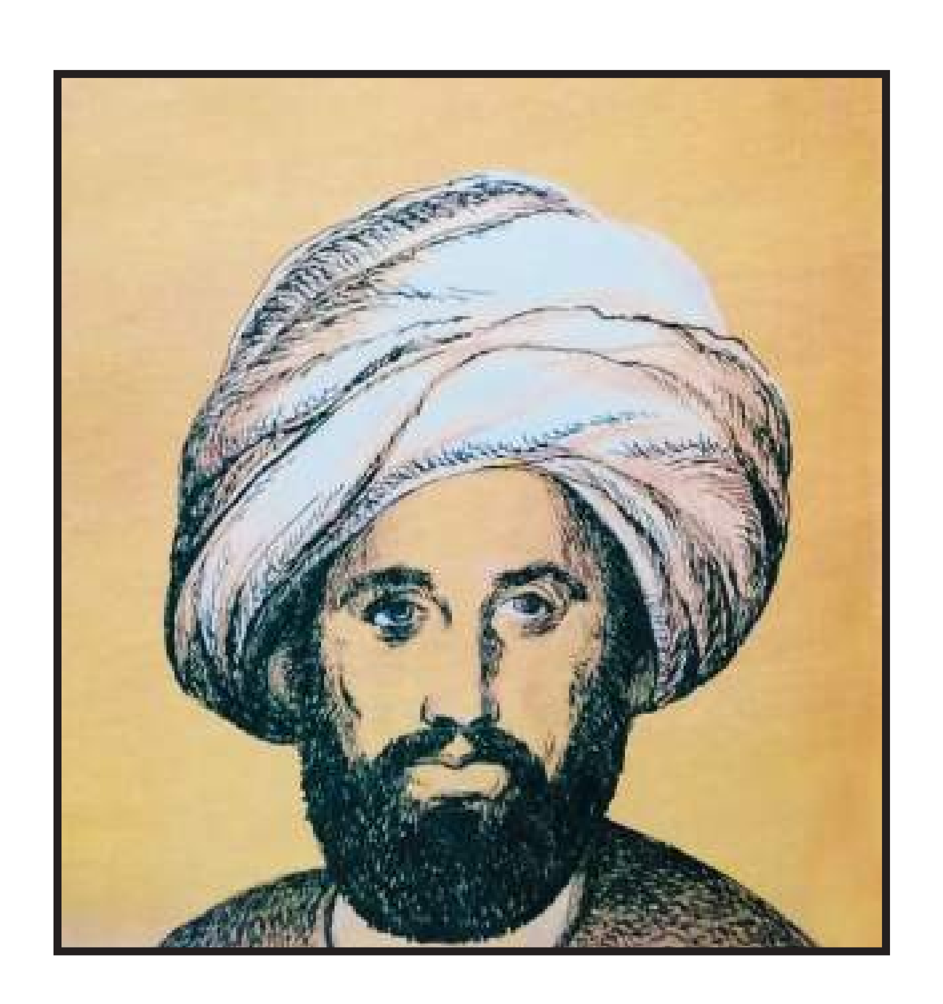
«إذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمومة عظيمة في حق النساء».

رفاعة الطهطاوي

نشرت جريدة الأهرام المصرية عام ١٩١٠م إعلاناً تطلب فيه القبض على عدد من الطلاب المصريين الهاربين، الذين تقرر إرسالهم في بعثات إلى أوروبا.

قد يبدو الأمر أشبه بالطُّرفة، لكنَّ التغرُّب في ذلك الزمن لم يكن أمراً هيِّناً، لذا فإن فكرة السفر إلى قارة مجهولة وبلدان غريبة أشعرت الطلاب بالرَّهبة والخوف من هذه المغامرة، ولم نعرف ما الذي حدث بعد ذلك.

فالعالم وقتها كان متباعداً جداً، ولا يسهل التواصل والسفر الذي عرفناه في أيامنا، ولا يمتلك الطلابُ كلُّهم العزيمةَ والجدَّ نَفْسَيْهما في طلب العلم وفي تحمُّل الصعاب لأجله في ذلك الوقت.



نحو الحلم

لـذا سـأحكي لكـم حكايـة معاكسـة تماماً لخبر جريـدة الأهـرام، وقـد جـرت في مـصر ذاتهـا. إنهـا حكايـة رجـل عـاش طـوال حياتـه لأجـل العلـم والتعليـم، وفي سـبيل ذلـك لم يمنعـه عائـق مـن إكـمال مسـيره، واسـتصغر الصعوبـات والمشـقّات، وتحمَّـل المـرض والسـهر والغربـة، لكنـه اسـتطاع في النهايـة أن يحقـق مـا يعجـز عنـه العـشرات معـاً مـن زملائـه.

نحـن الآن في مطلـع القـرن التاسـع عـشر، وبالضبـط في عـام ١٨٠١م حيـث وُلـد الطفل رفاعـة الطهطـاوي في مدينة طهطـا التابعـة لمحافظـة سـوهاج لأب يعمـل في تدريـس العلـوم الدينيـة والقـراءة والكتابـة والقضـاء، وعـاش فقيراً، متنقـلاً بـين أخميـم وقنـا وفرشـوط، لكنـه اهتـم بتحفيـظ ابنـه القـرآن، وعلَّمـه القـراءة والكتابـة، فـكان رفاعـة يُظهِـرُ

قدرةً كبيرة على الحفظ والفهم، ويملك روحاً متطلِّعة إلى تحقيق الآمال، وكثيراً ما حدَّث نفسه:

«عليَّ أن أحمل مشعل علم يجعلني مضيئاً لمن حولي، وأن أكون في مقدمة الساعين للتفوّق والنبوغ».

أما مصر فقد مرَّت عليها قرون عدَّة من ظلام العهد العثماني وظلمه، فعانت كغيرها من الأقطار العربية، إذْ ليس لدى السلطان القابع في استنبول سوى الجبايات وحماية العرش، وغالبية الناس عبيد له، فلا مراعاة لحياة الشعب في العدالة والتعليم وتحسين المعيشة وردّ الحقوق إلى أصحابها، ولم يكن حُكّام مصر وقتها سوى جباة لسلطان استنبول، فخنقوا التجار والفلاحين بضرائبهم، وكثيراً ما كانوا يفرضون عليهم المزيد من تحصيل المال بغير حق، والمصادرات والرشاوى وغير ذلك من التعدِّيات.

لكنّ مصر استيقظت بعد حملة نابليون الفرنسية عام

١٧٩٨م التي زلزلتها، إذ فاجأها هذا الغزو من وراء البحار، فانهزم الجيش الضعيف المتخلف أمام جيش فرنسي حديث ومُزوَّد بأسلحة متطورة وقتها، مع خطط عسكرية علمية في خوض المعارك، ثم دخلت قوات نابليون بونابرت القاهرة، وبدأت مرحلة قلقة، فإذا بمصر تستفيق على تخلُّفها العميق عن ركب الحضارة، لأن الناس لاحظوا أن لدى هذا الغازي قُدراتٍ لم يعرفوها، ففتحت عيونهم على العلم والطباعة والمسرح والهندسة وتنظيم الدولة... إلخ، لهذا شعروا بالفاصل الكبير الذي يفصلهم عن الغرب، ولا سيما أن نابليون جلب معه مجموعة من العلماء في الاختصاصات جميعها، ليسهل عليه تحقيق أغراضه، وللاستفادة من خيرات البلد، وتسهيل معيشة جنوده، ولمنفعة فرنسا ومنافسة الأطماع الإنكليزية أيضاً.

صحيحٌ أنّ حملة نابليون لم تستمرَّ سوى ثلاثة أعوام،

إذ استطاعت الحملة البحرية الإنكليزية أن تهزم جيش نابليون، وتجعله يغادر مصر، لكنها كانت كافية لتُشكِّل انقلاباً في عقول كثير من المصريين.

وكثيراً ما كان المصريون يشاهدون بعض العمليات الكيميائية والفيزيائية في ساحات القاهرة، فيتجمعون حول بعض العلماء الذين جاؤوا مع الحملة الفرنسية، وحين تظهر نتائج تلك العمليات من ظواهر وتفاعلات، يتملَّكهم الذهول والعجب، بل كان بعضهم يظن أن ذلك من عمل الجن والشياطين، فحاولت مصر بعدها أن تنهض، ولا سيما أنه جاءها حاكمٌ طَموحٌ ومُتفتِّح هو محمد علي، يرى أن الأساس الأوَّل للنهوض لا بدَّ أن يكون التعليم والتصنيع والتنظيم، فقرَّر أن يبدأ رحلة التقدم واللحاق بالأمم الناهضة، فبدأ بالبعثات العلمية كخطوة أولى لتحقيق ذلك، فأرسل أول بعثة إلى إيطاليا عام ١٨١٣م، ثم تلتها بعثة إلى فرنسا عام ١٨١٨م، ثم

البعثة الثالثة إلى فرنسا عام ١٨٢٦م، وكان فيها رفاعة الطهطاوي.

قد تعجبون أنّ محمد علي كان أميّاً، لكنه كان من أكثر المتحمسين للعلم والتعليم، وآمن بأنه إذا أراد أن يجعل من مصر دولة قوية ومتميزة فعليه أن يسلك سلوك الحضارة، وهو يقوم على العلم والعمل.

نعود إلى رفاعة الطهطاوي، فقد حصل على شيء من العلم في الكتاتيب ومجالس الشيوخ، فهذه حال التعليم وقتها، ولا ننسى عناية والده به خاصة، فبرز بين أقرانه بالتفوُّق والجدِّيّة، وصار حلمه أن يذهب إلى القاهرة، ليواصل تعليمه في الأزهر الشريف.



في القاهرة

جاء الطهطاوي من الصعيد إلى القاهرة في عام ١٨١٧م طالبَ علم فقيراً، لكنه مميز بذكائه وحماسته، فالتحق بالأزهر الذي كان وقتها أهمَّ مدرسة تقدِّم العلوم الشرعية، وبذلك يستطيع الدارس أن يصبح قاضياً أو خطيباً وإماماً في المساجد، وقد كانت أيضاً مدرسة تؤمِّن المعاش، لأنها تقدّم المأكل والمشرب والسكن للطلاب.

وكم كانت فرحة رفاعة الطهطاوي بقبوله! فصار طالباً لامعاً، يستمع، ويسأل، ويحفظ، ويناقش، ومنذ وقت مبكِّر عُرِف عنه ميلُه الشديد إلى التجديد والانفتاح على العلوم العصرية، فكان يطمح إلى المزيد من الاطلاع، فيُكثِر من قراءة الكتب المتوافرة، حتى

لو كانت خارج المقرَّرات في الجامع الأزهر، أمَّا الموجِّه الأهمُّ له فهو أستاذه المفضَّل الشيخ حسن العطار الذي يقول عنه علي مبارك: «اشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها، واتصل بناس من الفرنساوية، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم، ويفيدهم اللغة العربية، ويقول إن بلادنا لا بد أن تتغيَّر أحوالها، ويتجدَّد بها من المعارف ما ليس فيها».

وكان الشيخ العطار يلوم الأزهر على انغلاقه، ويستغرب ابتعاده عن تعليم العلوم العصرية كالرياضيات والجغرافيا وعلم الأحياء وغيرها، ولأنه وجد في تلميذه الطهطاوي ملامح النبوغ والنباهة فقد كان يساعده في شؤونه الشخصية والدراسية.

كان لا بد للطالب آنذاك من أن يصبر على كثير من قسوة العيش، وألا يُبذِّر إن جاءه المال من أهله، أو وصلته الزوّادة، ولا يهدر الوقت في التسلية الفارغة،

لكنْ، في الوقت نفسه، لا يحرم نفسه من التسالي البريئة، والألعاب الرياضية، والمهارات العقلية، كالشطرنج مثلاً، وفي كل ذلك كان رفاعة في طليعة زملائه.

بعد أن أنهى متطلبات الأهلية للتدريس، عمل الطهطاوي مدرِّساً في الأزهر، كما كان مضطراً إلى إعطاء الدروس فيما بعد ليؤمِّن أمور معاشه، ثم التحق بالعمل الرسميّ، فصار واعظاً في الجيش المصري.

نحو باريس

كان محمد علي قد بدأ بإرسال البعثات التعليمية إلى الغرب، وكانت البعثة الأولى إلى إيطاليا عام ١٨١٣م، ولـمَّا قرَّر عام ١٨٢٦م إرسال بعثة علمية ثانية إلى فرنسا التي سبقتها بعثة عام ١٨١٨م، بدأ الإعداد لها.

لم ينسَ الشيخ حسن العطار تلميذه النجيب حينها، فعمل على ترشيحه إلى البعثة، وهكذا كان الطهطاوي ضمن الذين تقرَّر أن يكونوا ضمن البعثة العلمية إلى فرنسا عام ١٨٢٦م، لكنْ بصفة إمام لها، ولم يتوقَّع أحد أن هذا الإمام سيكون فيما بعد أهمَّ طالبٍ فيها.

كان المصريون وقتها لا يزيدون على ثلاثة ملايين نسمة، لكنهم مقيَّدون بالجهل والفقر والخرافات والشعوذة والمرض، وزادت الطين بلَّة جبايات

العثمانيين وظلمهم، فخيرات البلد تذهب إلى جيوب السلطان القابع في استنبول وأعوانه، والباقي تتوزَّعُه جيوبُ الظالمين في مصر نفسها، فغاب الأمن، وكثرت الرشاوى، وشاع الفساد.

ولا شك في أن تأثير الحملة الفرنسية كان كبيراً، إذ دقّت ناقوس الخطر، ونبّهت الكثيرين للحاجة إلى نهضة جديدة، لهذا لمّا جاء محمد علي حاكماً اندفع إلى كثير من الإصلاح، فأقام القناطر والسدود، وطوَّر أنظمة الري، كي يبث الحياة في الزراعة التي كانت بدائية، وبلا رعاية من الدولة، وعمل على تحسين الإدارة في البلاد، وبدأ بافتتاح المدارس العصرية التي تدرِّس الحساب والجغرافيا والعلوم، ولو على نحوٍ بسيط.

ودَّع الطهطاوي بحزن أستاذه حسن العطار قبل السفر، وطلب إليه النصيحة، فاستمع إلى نصائح معلمه العظيم، وصاحب الفضل في اختياره لهذه المهمة، فطلب

إليه العطار تسجيل مشاهداته وتجاربه في رحلته، لأنه بذلك سيُقدِّم خبرةً كبيرة وخدمة لا تُنسى إلى شعبه، فوعده، وقال له:

«سيكون لك ذلك يا شيخي العزيز، وكل نصائحك لي ستظل مشعلاً يضيء لي في عتمة الليالي».

عانق التلميذ أستاذه، وقبَّلَ كتفيه، وراح يُكفكف دموعه، وهو يخرج ليلتحق بزملائه الذين كانوا ينتظرونه في زوارق صغيرة في النيل، ثم تحرَّك الجميع من القاهرة نحو الإسكندرية، فراحت الزوارق تشقُّ طريقها، والطلاب مع أعضاء البعثة يتفرَّجون على الشاطئ بأشجاره وطيوره وقُراه، وفي داخلهم حزنُ الفراق، وخوفُ المجهول، وشوقُ التعرُّف إلى العالم الجديد خارج مصر، لكنهم كانوا ممتلئين بعزم الطالب الطامح إلى تحقيق الأمنيات.

بعد ثلاثة عشر يوماً، وصلت الزوارق إلى ميناء

الإسكندرية، وكم كانت دهشة الجميع من جمال هذه المدينة، وقد قال عنها الطهطاوي إنه وجدها «قطعة من أوروبا».

ومن الإسكندرية، ركبت البعثة سفينة فرنسية، أقلعت بهم نحو فرنسا، وأول ما لفت نظر الطهطاوي عناية البحّارة بنظافة كل شيء في السفينة، حتى إنهم يغسلون مقاعدها كل يوم.

مرّت السفينة بجزيرة كريت، وبجزيرة مسينا التي توقّفوا فيها خمسة أيام، وبنابولي التي توقّفوا فيها يوماً واحداً، وبكورسيكا. أما بعد اليوم الثالث والثلاثين فقد وصلت السفينة إلى مرسيليا بعد صعوبات وعواصف وأمواج عالية كادت تُغرِقُ الجميع.

نزلت البعثة إلى زوارق صغيرة حملت الجميع إلى الفحص الطبي للسماح لهم بدخول فرنسا، وقد حدثنا الطهطاوي عن مشاهداته الأولى، وكيف أن الفرنسيين

يأكلون في صحون القيشاني، وأن للصحون أنواعاً وألواناً بحسب ما سيُسْكَبُ فيها، وكيف أنهم يبدؤون بالشوربة ثم باللحوم والخضراوات، وأنهم يُغيّرون الصحون كثيراً عند الأكل، وأنهم لا ينامون إلا على أشياء مرتفعة كالأسرَّة.

لقد مكثت البعثة في مدينة مرسيليا ثمانية عشر يوماً، في بيت كبير مُخصَّص لهم لا يغادرونه، ثم جاءت عرباتٌ تجرُّها الأحصنة، وبدأت المسير بهم نحو باريس، فمرَّت بمدينة ليون بعد ثلاثة أيام من السير، فاستراحت يوماً، ثم واصلت رحلتها، وفي الطريق كانوا يتوقّفون للتزوُّد بالطعام والشراب، ولأجل الاستراحة، وطوال الطريق كانت الأشجار تحيط بهم، والبيوت الجميلة تتناثر على جانبَي الطريق بلا انقطاع تقريباً، وقد لفت نظر الطهطاوي أن المقاهي «عندهم ليست مجمعاً للحرافيش، بل هي مجمع لأرباب الحشمة،

ومُزيّنة بالأمور النفيسة التي لا تليق إلا بالغنى التام»، والنساء هنّ اللواتي يُدِرْن المقاهي.

ثم وصلت البعثة إلى العاصمة باريس في اليوم السابع.

في باريس، نزل الجميع في دار مُخصَّصة للبعثة، وأدهشت الطهطاوي بطرقها المبلطة، وأرصفتها المرتبة، وحدائقها الغنّاء الواسعة، وقصورها وأشجارها المُنسَّقة، وسُكّانها الأنيقين، والنظافة في كل مكان.

وأعجبته جسور باريس الستة عشر، وقد أقيمت على نهر السين بمراكبه الجميلة والمتنوعة التي لا تكفُّ عن الذهاب والإياب.

ولا ينسى الطهطاوي «قرقعة العربات ليلاً ونهاراً بغير انقطاع».

ووقف المشرف على البعثة الأستاذ (جومار) بعد

سنتين من الدراسة، فخطب في الطلاب خطبة طويلة قال فيها: «أمامكم مناهل العلم، فاغترفوا منها بكلتا يديكم، وهذا هو قبسه المضيء بأنواره أمام أعينكم، فاقتبسوا من فرنسا نور العقل الذي رفع أوروبا، وفرنسا التي تُعلّمكم وتُهذّبكم تفي ما عليها من الدَّين الذي للشرق على الغرب كلّه».

بدأ الطهطاوي يتعرَّف إلى الناس في حياتهم التي تثير العجب والإعجاب، لأن الفارق كان كبيراً بين ما عاشه في مصر، وما بدأ يشاهده هنا، فقد كتب: «ومن طباع الفرنساوية التطلُّع والتولُّع بسائر الأشياء الجديدة وحبُّ التغيير والتبديل في سائر الأمور، وخاصة في أمر الملبس».

«ومن طبائعهم المهارة والخفة، فإن صاحب المقام قد تجده يجري في السكَّة كالصغير، ومن طباعهم أيضاً الطيش والتلوُّن، فينتقل الإنسان منهم عن الفرح إلى

الحــزن وبالعكــس، ومــن الجــدّ إلى الهــزل وبالعكــس»، «ومــن أوصافهــم توفيتهــم غالبــاً بالحقــوق الواجبــة عليهــم»، «ومــن طباعهــم الغالبــة وفــاء العهــد، وعــدم الغــدر، وقلــة الخيانــة»، «ومــن طباعهــم الغالبــة: الصــدق، ويعتنــون كثــيراً بالمــروءة الإنســانية».

ولفــت النظــر إلى مــا للمــرأة مــن مكانــة عندهــم، فلهــا احــترام خــاص، فالنســاء كالرجــال في كل شيء، فقــال مثلاً: «الأنثــى دائــماً في المجالــس مُعظَّمــة أكثــر مــن الرجــل»، وهــذا مــا جعلهــا مواطنــة تُقــاسُ قيمــتُــها بعلمهــا وعملهــا لا بشــكلها: «إنّ قــول أربــاب الأمثــال: جمــال المــرء عقلــه، وجمــال المــرأة لســانها، لا يليــق بتلــك البــلاد، فإنــه يُســأل فيهــا عــن عقــل المــرأة وقريحتهــا وفهمهــا، وعــن معرفتهــا»، بــل هــو يُؤكِّــدُ بقــوة دورَ المــرأة «إذا كانــت البطالــة مذمومــةً في حــقِّ الرجــال فهــي مذمومــة عظيمــة في حــق النســاء».

ولعــلّ مــن أهــم مــا لاحظــه أيضــاً احــترام العمــل، فقــد

رأى مجتمعاً نشيطاً يقوم على الجهد والإتقان، ويحتقر التقاعس والخمول، فقال: «اعلم أنّ المركوزَ في أذهان هؤلاء محبّةُ المكسب والشغفُ به، وصرفُ الهمة إليه بالكُلّية، ومدحُ الهمة والحركة، وذمّ الكسل والتواني، حتى إن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم في الذمّ هي لفظة الكسل والتنبلة»، «وتداوُل الأمطار والرياح لا يمنع الإنسان منهم عن الخروج إلى شغله، يقولون بلسان حالهم: اليد الفارغة تسارع إلى الشر، والقلب الفارغ يسارع إلى الإثم»، وهكذا «تُبنى الأوطان بالحرية والمصانع».

كما أُعجبَ بحماسة الفرنسيين للتعليم وتربية الأجيال، فـ«أولادهم دائماً مُتأهّلون للتعلُّم والتحصيل»، فذلك أساس النهضة، وأكَّد أنّ «خير الأمور العلم، وإنه أهمُّ كلِّ مُهمّ».

ومع كل تلك المزيّات، هناك التواضع الذي يتحلّى به الجميع، وهو ما يجعل التقارب أساساً في تصرُّف الناس، فلا استعلاء من أحد على أحد بسبب الفروق المادية، أو بسبب السلطة التي في يد بعضهم، فقد لاحظ الطهطاوي أنّ الوزير «إذا مشى في الطريق لا تعرفه من غيره».

كل ذلك جعله يحبُّ باريس حباً صادقاً، فقد قدّمت إليه المعرفة الجديدة، وفتحت عينيه على محاسنَ كثيرة، سيكون لها أثر في إيقاظ بلاده من غفوتها الطويلة بعد قرون من الظلام، ولهذا كتبَ شعراً في مدينة باريس، ومنه:

أَيُوجَـــدُ مثلُ باريسٍ دِيارٌ
شموسُ العلمِ فيها لا تغيبُ

وكتبَ:

وكم شَـهِدْتُم مِن وغى!　　وكم هَـزمتُـم مَن بَغى!

فمـن تعـدَّى وطغـى　　عـلى حِماكـم يُـصَرعُ





طالبُ العلم أوّلاً

شيء يثير الإعجاب، فرفاعة الطهطاوي، منذ وصوله إلى فرنسا، تحوَّل إلى طالب مجدٍّ، بل صار في مقدمة الطلاب، مع أنه كان إمام البعثة بحسب الترتيب الذي جرى، وقد استطاع بسبب حرصه ودأبه أن يبدأ بالترجمة بعد سنة وثمانية أشهر من الدراسة، لأنه كان يصل الليل بالنهار قراءةً واطلاعاً، وبحثاً ومحاوراتٍ وأسئلةً مع أساتذته، ولاقت نتائجه تلك إعجاباً كبيراً من أساتذته، ولفت الأنظار بقدراته الكبيرة، وإصراره على الإفادة من وجوده في باريس، فقد كانت إقامته في باريس حلقة درس لم يكد يتوقف فيها إلَّا لنوم قليل، يسابق الزمن لاكتساب المعرفة، حتى خُشيَ على بصره من المحيطين به.

وكان من نتائج هذا الدأب العجيب أن اطَّلع على خلاصة المعرفة العلمية والأدبية في تلك الأيام، فثمَّن جهودَهُ العلماءُ المشرفون: «جومار، ودي ساسي، وديبرسفال»، وكان جومار آخر من امتحن الطهطاوي، وهو المشرف العلميُّ على الرحلة، وكان من الذين جاؤوا مع الحملة الفرنسية على مصر، لكنه اختار البقاء فيها.

بعدها عادت البعثة أواخر عام ١٨٣١م، عابرةً «فنتانبلو، ونيمور، وكوزن، ومولان، وروان، ثم ليون، وأرغون، وصولاً إلى مرسيليا»، فركبت البعثة سفينةً متجهة إلى الإسكندرية في الخطّ نفسه، بعد خمس سنوات من الدراسة والاطلاع.

عائد إلى مصر

وبعد عودة رفاعة الطهطاوي، تلقَّاهُ محمد علي بكل ما يستحق من إكرام وتبجيل، وأثنى عليه، وكرَّمه، بعد أن سبقته شهادات مدرِّسِيه الفرنسيين، فقد كان بشهادة الجميع أكثر الطلاب تحصيلاً وتفوُّقاً وخلقاً، وهكذا عرفت مصر من ذهب إمامَ بعثة تعليمية، فعاد واحداً من أهم علمائها في شتى العلوم والفنون.

ومن طرائف محمد علي أنه حبس طلاب البعثة عند عودتهم في قصره، ولم يكن يسمح للطالب أن يغادر إلى أهله إلَّا بعد أن ينهي ترجمة كتاب من الفرنسية إلى العربية، وهذه عادته مع أيّ طالب قادم من الخارج.

فكان من فضل هذه البعثة أنها زوَّدت مصر بمُتخصِّصين في شتى العلوم الطبية والعسكرية

والهندسية واللغوية والأدبية والرياضية والزراعية والإدارية والبحرية والحقوقية، ومن طلابها بدأت تنشأ المؤسسات العصرية في مصر أوّل مرّة.



أمَّـا دور رفاعـة الطهطـاوي فيـما بعـد، فقـد عمـل بدايـةً مترجمـاً في مدرسـة الطب، ثـم أنجـزَ بعدهـا أهـمَّ أثـر خلَّد ذكـره، إذ أنشـأ «مدرسـة الألسـن» عـام ١٨٣٥م، وهـي أشـبه بكُـلّية لغات، وخطَّـتُـها الرئيسـة أن تُوفِّـر للمجتمع والدولـة صلـةً حيّـة بعلـوم العـصر وثقافتـه، فتحوَّلـت إلى خـزَّان تسـتقي مـصر منـه، فتمـدُّ مدارسَـها ودوائرهـا الحكوميـة وصناعاتهـا بـما تحتـاج إليـه مـن الأساسـيّات في شتّـى المعارف.

وعمـل رفاعـة الطهطـاوي كذلـك عـلى نـشر الكتـب التراثيـة في مطبعـة بـولاق، وهـي أول مطبعـة وطنيـة في مـصر بعـد الحملـة الفرنسـية، وقـد أُنشِـئَت عـام ١٨٢٠م.

وكـم هـو جميـل أن نعـرف أنّ مديـرَ المطبعـة رجـلٌ سـوريّ ماهـر مـن حلـب اسـمه نقـولا مسـابكي! ففـي عـام ١٨١٦م أُرْسِـل مسـابكي إلى ميلانـو في إيطاليا ليتعلَّـم فنـون الطباعـة وسـبك الحـروف وصناعـة قوالبهـا، وبعـد

أربع سنوات عاد إلى مصر، فكلّفه محمد علي بإنشاء مطبعة لأغراض الدولة، فتولّى إدارة مطبعة بولاق، وكان عملها طباعة الكتب الرسمية وكتب المدارس والصحافة والإعلانات، وبقيَ يُديرُها حتى تُوفّيَ عام ١٨٣٠م، وفي أثناء ذلك كان حريصاً على أن تستمر الطباعة بأجمل شكل، فدرَّب عُمّالاً كثيرين على فنون الطباعة.

هناك مثلٌ له دلالة كبيرة على مكانة الطهطاوي العلمية، فلمّا عُيِّنَ مترجماً في مدرسة الطب في «أبو زعبل» كان رئيسها يوحنا عنجوري، وهو سوريٌّ آخر نفخر به، لكنّ عنجوري قال عن الطهطاوي بكلِّ نُبل وصدق وتواضع: إنه «أستاذي، وهو أحقُّ مني بالرئاسة، لأنه أدرى مني بالتعريب، والتنقيح والتهذيب، وهذه شهادةُ الحق التي تقضي له بالسبق».

وبعد سنتين انتقل الطهطاوي إلى مدرسة المدفعية،

فظَلَّ فيها عامين من ١٨٣٣ إلى ١٨٣٥م، ولمّا انتشرَ الطاعون ذهب شهرين إلى (طنطا)، لكنه لم يقضِ تلك الفترة بلا عطاء، فترجم كتاباً في الجغرافيا، ولأنه صار على خلاف مع ناظر مدرسة المدفعية «لاسكويرا» الذي كان يكره فرنسا ولغتها، فقد طلب رفاعة نقله إلى المدرسة التجهيزية ليُدرِّس الجغرافيا التي يحبها.





دار الألسن

ثم اقترح رفاعة الطهطاوي إنشاء «دار الألسن»، فقبل محمد علي، وكلفه باختيار التلاميذ، فاختارهم ممَّن أعمارهم بين (١٤) و(١٨) عاماً، فاختار مع طبيب مساعد له خمسين طالباً من الأقاليم والأزهر، ثم أضافوا فيما بعد عشرة آخرين.

حوَّل الطهطاوي «دار الألسن» إلى ورشة ثقافية عظيمة، وفي عام ١٨٤١م قرّرت لجنة تنظيم المدارس أن يكون العدد ستّين تلميذاً، واستمرَّ ذلك حتى نهاية حكم محمد علي، ولمّا أُنشِئَت في عام ١٩٣٥م كانت اللغات التي تُدرَّس فيها هي الفرنسية والتركية والعربية والفارسية والإيطالية والإنكليزية، كما تُدرِّسُ الهندسة والجبر والتاريخ والجغرافيا، وكان الاهتمام الأكبر بالعربيّة والفرنسية، ثم أدخل فيها تعليم الإدارة

والزراعة والشريعة والمحاسبة، وكلُّ ذلك بإدارة هذا المُعلّم الكبير.

تخرّجَ في الدفعة الأولى عام ١٨٣٩م عشرون مترجماً، وخطب فيها رفاعة الطهطاوي قائلاً:

«لا يخفى أنّ أصْلَ تصدِّينا لإنشاء هذه المدرسة حبُّ إيصال النفع إلى الوطن الذي حُبُّه من الإيمان، وتقليل التغرُّب في بلاد أوروبا حيث لا يتيسّر لكل إنسان، والنصح في الخدمة».

ولمّا أُنشِئَ «قلم الترجمة» عام ١٨٤١م أُلحِقَ بدار الألسن بإشراف رفاعة لترجمة الرياضيات بإشراف محمد بيومي أفندي، والعلوم الطبيعية والطبية مصطفى واطي، والعلوم الاجتماعية خليفة محمود، وللترجمة التركية ميناس، وكان من الإنجازات الهائلة في ذلك الوقت ترجمة ألفَيْ كتاب في مختلف العلوم والمعارف إلى العربية، وهذه خطوةٌ تشبه فتح نافذة كبيرة على العالم المتقدم.

مُعلّمٌ منفيٌّ

يقـول النـاس: إنّ «الحلـو لا يكمـل»، فقـد بـات عـددٌ مـن زمـلاء الطهطـاوي وأتباعهـم يكيـدون لـه، وينسـجون خيـوطَ الدسـائس في طريقـه، فحاربـه كثـيرون لاسـتنارته، وبسـبب كتابـه «تخليـص الإبريـز في تلخيـص باريـز» بحجة أنـه يدعـو إلى الثـورة عـلى الحاكـم، وغَـيرةً مـن نجاحـه، كثـرت الوشـايات، وشـاع الحسـدُ والتنافـس غـير الشريف، وقـد التقـى كلُّ ذلـك مـع تولِّـي حاكـم جامـد وجاهـل، هـو الخديـوي عبـاس، التابـع الذليـل للسـلطان العثمانـيّ، فقـد كان كارهـاً للانفتـاح عـلى العـصر، ومعاديـاً للعلـم والتعليـم وأهلهـما، فسـارع بإرسـال رفاعـة الطهطـاوي إلى السـودان الـذي كان جـزءاً مـن مـصر، بحجـة تأسـيس مدرسـة ابتدائيـة في الخرطـوم هنـاك، وأغلـقَ عبـاس بعدهـا دار الألسـن، وأغلـق أكثـر المـدارس، واكتفـى بعـدد قليـل منهـا، وأغلـق كثـيراً مـن المعامـل والمشـاريع.

لم يكـن في يـد الطهطـاوي سـوى الامتثـال للأمـر، فذهب إلى الخرطـوم، لكنـه كان عـلى يقـين بـأن إبعـاده لم يكـن إلا نفيـاً لـه، وأنـه لا نيّـة حقيقـة لإنشـاء مدرسـة، فظـلّ بـلا عمـل وبـلا مؤونـة تقريبـاً، وقـد ذكـر نكبتـه العلميـة تلـك فكتـبَ:

ومـا خِلْـتُ العزيـزَ يُريـدُ ذُلِّـي

ولا يُصغـي لأخصـامٍ لِـداد

لديـه سَـعَوا بألسـنةٍ حِـدادٍ

فكيـف صَغـى لألسـنةٍ حـدادِ؟

ثمّ يصف جوَّ السودان قائلاً:

بهـا ريـحُ السَّـموم يُشَـمُّ منـه

زفـيرُ لظـىً فـلا يُطفيـه وادي

عواصفُهـا صباحـاً أو مسـاءً

دوامـاً في اضطـرابٍ واطـرادِ

فعانى في السودان معاناةً قاسية، ووجد نفسه بلا عمل، فقد هرب التلاميذ إلى الجبال، ومات أكثر المعلمين، واستولى حكمتيار السودان على مال المدرسة، وباختصار فالمدرسة «اسمٌ بلا رسْم» كما وصفها الطهطاوي.

لكنه كعادته لم يستسلم للبطالة والكسل، وأصرَّ على أن يستغلَّ وقته في عمل يفيد به وطنه، فترجم في تلك الفترة (تيلماك) لفنلون، وهو كتاب شائق مملوء بالعِبَر التربوية المفيدة، ثم انتهت بعدها محنته باستلام الخديوي سعيد، وهو مختلفٌ عن عباس، ومُحبٌّ للعلم والنهضة، وقد كان الطهطاوي يدرك أن محاربته جاءت من معسكر أعداء العلم كما كتب:

رفاعةُ يشتكي من فتيةٍ سخرتْ

لـمَّا رأتْ أبحرَ العرفان قد زخرتْ

بعد ذلك حاولت الحكومة ترقيعَ الأمر، فلمّا تولّى الخديوي سعيد أعاد رفاعة بعد إلغاء المدرسة، وبعد أسبوع من توليته.



العلمُ للجميع

لا شك في أننا نستطيع أن نتحدث الكثير عمَّا فعله الطهطاوي لبلده، لكنّ العمل الأكثر قيمةً وأثراً فيما بعد كان تأسيسه للتعليم العصريّ في مصر، ونشر الفكر التربويّ المُستنير، لهذا قام بالخطوات اللازمة لذلك حتى يُحقّق الهدف.

إنّ النهوض بالتعليم لا يمكن أن يقوم على جهد فرديّ فقط، لذا آمن الطهطاوي بالجهد الجماعي، وبالتنظيم والمثابرة، فترجم الكتب المدرسية وغيرها مع زملائه في البعثة، ومع طلابه الذين تخرّجوا في دار الألسن، فتولّى إبراهيم أدهم «مكاتب المِلَّة» لتعليم سواد الشعب، وهو ما يشبه محو الأمية، واقترح رفاعة لإدارتها، لكنّ الأمر ظل بلا تنفيذ، فعُيِّنَ بعد ذلك مترجماً عند إبراهيم

أدهم محافظ القاهرة بعد إلغاء «ديوان المدارس»، ثم بعد شهر عُيِّنَ ناظراً ثانياً في المدرسة الحربية، ثم صار ناظرها عام ١٨٥٦م، ونشط في الترجمة والنشر، ثم كُلِّف بنظارة مدرسة الهندسة الملكية والعمارة وتفتيش مصلحة الأبنية، لكنْ في عام ١٨٦١م أُلغيَت المدرسة، فتعطَّل سنتين، فلمّا جاء الخديوي إسماعيل أعاد «ديوان المدارس»، فصار الطهطاوي عضواً فيه، ثم كُلِّف بقلم الترجمة عام ١٨٦٣م حين إنشائه، فاختار أهم طلابه: عبد الله السيد، وصالح مجدي، ومحمد قدري، ومحمد لاظ، وعبد الله أبو السعود. ووضع الأسس الحديثة الأولى للتعليم العصري، فأكّد أهمية الاستفادة من منجزات الغرب، وبناء التربية في المدارس بناءً على حق الجميع في التعلُّم بعيداً عن التمييز، ويسند حججه بما يناسبها من شواهد مأخوذة من تراثنا، فجاء كتابه «المرشد الأمين في تربية البنات والبنين» ليضع الخطوط

العريضة لهذا المسعى، ففي هذا الكتاب فصلٌ مهم «في تشريك البنات مع الصبيان في التعلُّم والتعليم وكسب العرفان»، فهذا الموقف الذي اتخذه الطهطاوي إلى جانب تعليم البنات مع الصبيان في المدارس جاء في وقت عصيب، فقد كان المجتمع الجاهل يحرم البنت من التعلُّم في المدارس، ويُكرِهُها على البقاء في البيت، كأنها مواطن من الدرجة الدُّنيا، لهذا بدأت مصر تتلمَّس الطريق الصحيح نحو العدالة، فللفتاة حقٌّ في التعلُّم والعمل كالفتى تماماً.

ومن الجميل أن نعرف أمراً رائعاً يخصُّ عمَّنا رفاعة، ويُؤكِّدُ مصداقيته في الحياة الحضارية، حتى مع أسرته، وكيف أنه اختار زوجةً تمتلك عزّة النفس المطلوبة في المرأة، فقد قبل أن تكتب زوجته عليه تعهُّداً بألّا يختار غيرها شريكةَ حياة، وقد جاء في نصِّ ذلك التعهُّد:

«يلتزم كاتب الأحرف رفاعة بدوي رافع لابنة خاله

المصونــة الحاجــة الكريمــة بنــت العلامــة الشــيخ محمــد الفرغـلي الأنصـاري أن يبقـى معهـا وحدهـا عـلى الزوجيـة دون غيرهـا مــن زوجــة أُخــرى».

وعــن الانفتــاح والحريــة العلميــة يستشــهد الطهطــاوي بالحديــث النبــوي الشريــف: «الحكمــةُ ضالّـــةُ المؤمــن يطلبُـــها ولـــو في أهــل الــشرك»، ويدعــو إلى التعامــل مــع الآخــر المختلــف، فالبشريــة تُوحِّدُهــا المصالــح المشــتركة والحقائــق العلميــة، فــلا بــد مــن قبــول الآخــر، ومشــاركته في البنــاء والمعرفــة، فهــو يقــول: «إنّ مخالطــة الأغــراب، ولا سيما إذا كانــوا مــن ذوي الألبــاب، تجلــب للأوطــان المنافــع العموميــة». ولــمّــا ألّــف كتابــه المهــم «تخليــص الإبريــز» قــال في مقدمتــه: «أســألُ الله ســبحانه وتعــالى أن يجعــل هــذا الكتــاب مقبــولاً لــدى الخــاصّ والعــامّ، وأن يُوقــظَ بــه مــن نــوم الغفلــة ســائرَ أمــم الإســلام مــن عــرب وعجــم».

وشــدَّد الطهطــاوي الــمُربِّــي الكبــير عــلى الوطنيــة البانيــة

للمجتمع، التي لا تُفرِّق بين المواطنين لجنسٍ أو لون، مُشيراً إلى عطائه في كلّ مجال لنصرة الوطن في الظروف كلها، وهذا ما نلمسه في كلمات نشيدٍ يقولُ فيه:

بنو الآداب إخوانٌ جميعاً
وإخوانٌ بمختلف البلادِ

على عدد التواتر مُعْرَباتي
تفي بفنون سِلْمٍ أو جهادِ

وآدابُ الفتى تُعليه يوماً
إلى الأنجاد من بعد الوِهادِ

وهذا الجانبُ التربويّ هو الوجهُ الرئيسُ للطهطاوي، فالتربية عمودُ مشاريعه، فما توقَّفَ عن السعي شعراً ونثراً وإدارةً لترسيخ دعائم المدارس العصرية، ولهذا الغرض نقل ما رآه مهمّاً لوعي التلاميذ في كتابه: «تعريب الأمثال في تأديب الأطفال»، وراح يتغنَّى بمنجزات العصر العلمية، وكان بعضها قد دخلَ مصر،

كقولـه:

كـم طريـق مـن حديـدٍ تسـبق الطـير فيمكـنْ
وبريد كهربائـــــيْ وحْيُـــهُ لمحـةُ أعـيُنْ
ووبـــــوراتُ مياهٍ كجبـــال النـار تدخُنْ
فاحـظَ بالبِـشْر، وأرِّخْ دورَ تقديـم التَّـمدُّنْ

لهـذا ألَّـف وترجـم كتبـاً في التربيـة والتاريـخ واللغـة والتعليـم، ووضـع الأناشـيد المصريـة الأولى لطـلاب المـدارس، فـكان أول مـن كتـب شـعراً عربيـاً للأطفـال في العـصر الحديـث، مثـل:

يا صــاحِ حُـبُّ الوطنِ حِلْيــةُ كُلِّ فَطِـــنِ
محبّـــةُ الأوطـــانِ مِـنْ شُـعَبِ الإيـمانِ
في أفخـــر الأديـانِ آيـــةُ كُلِّ مُؤمِـــنِ

وقوله:

مِـن أصـلِ الفطـرةِ للفَطِـنِ
بعـدَ الـمولى حُـبُّ الوطنِ

هبــةٌ مَــنَّ الوهّــابُ بهــا
فالحمــدُ لوهّــاب الـمِنَـــنِ

***

للـــموطنِ كُلٌّ ينتســبُ ومعاهــدُهُ أُمٌّ وأبُ
فصحيـحُ العـزِّ لـهُ نسَـبُ يستملكُ صبّاً ذا شـجَـنِ

ونلاحـظُ أنّ هـذه الأناشـيد المبكـرة فيهـا المعـاني الكـبرى كحُـبّ الوطـن، والدعـوة إلى العلـم والعمـل، فخاطـب الأطفـال ليبعـث فيهـم روح النهـوض وتحقيـق الطموحات، وبـذل الـروح في الدفـاع عـن الوطـن، كـما نجـد في هـذا النشـيد:

فهيّـا يـا بنـــي الأوطـــان هيّـا
فوقـتُ فخاركــم لكـمُ تـهـيَّـا

أقيمـوا الرايـةَ العُظمـى سـويّا

وشـنُّوا غـارةَ الهـيجـا مليّـا

فهيّا يا بني الأوطان هيّا

فهاكـم قـد تعسـكرت الأهـالي

وسـارتْ كلُّهـا نحـــوَ القتـالِ

لتقتحــــمَ الــمهالكَ لا تُبالي

إذا مـا مـاتَ ليـثٌ في النِّــزالِ

تُولِّـدُ أرضُنـا شـبلاً صبيّـا

ولـه منظومـاتٌ تربويّـةٌ عـدّة، ومنهـا هـذه المنظومـة التـي يقـولُ في بعضهـا:

مَـــنْ رامَ عنـدَ النّاس طُرّاً أن يُـحَـبّ

يلتزم حُســــنَ الســــلوك والأدبْ

وأن يكــونَ طيِّــبَ الســــريرهْ

مُـهــذّب الأخــلاق زاكـي السِّــيرهْ

إنْ رُمــــتَ أن تُشـــوِّقَ الأولادا

وأن تـــرى مِــن نجلِـكَ اجتـــهادا

فعِـــدْهُ بالإتحـــاف يومَ العيـدِ

وقدِّمِ الوعـــدَ علـــى الوعيـــدِ

وشـــرُّ أوصاف الفتـــى هو الغضبْ

يُفضــــي إلــى ارتكاب ما لا يُرتكَبُ

مِـمَّـــا يُـعدُّ من صـــفاتِ الـذّمِّ

كَتْـــمُ الصَّـــغير عـــن أبٍ وأُمِّ

ويُقـدِّم في قصيـدة أُخـرى مجموعـةً مـن النصائـح التربوية للأطفال والـمُربّين:

يَــحْسُن حفـظُ اللـوح للصَّغـيرِ

عــلى مِــرارٍ، بــل وللكبــيرِ

يرسـخُ في الذِّهن، وليسَ يُــمْحى

جَــرِّبْهُ بالتقسـيم، واقبـلْ نُصْحا

الكِــبُرْ ناشــئٌ عــن الــحماقهْ

وما لعاقلٍ عليـهِ طاقـهْ

تَستحسـنُ الطّباعُ وصفَ الأدبِ

وأحسـنُ الآداب آدابُ النَّبـي

ومـا سـوى أخلاقِـهِ فباطـلُ

ومَـن تـحلَّى بسـواها عاطـلُ

ولا يليـقُ مـن غُـلامِ الطَّاعـهْ

خُـروجُ رأيـهِ عـن الجماعـهْ

ففـي اجتـماعِ الكِلْمـةِ السَّـلامهْ

بهـا يُتمِّـمُ الفتـى مَرامَـهْ

وقـوّةُ الـرأس مـعَ العِنـادِ

مـن أقبـح الـخِصال في الأولادِ

والامتثـالُ صفـةٌ جليلـهْ

للـودِّ ليـسَ مثلُهـا وسـيلهْ

مِـمّــا يُـعَــدُّ مـن صفـاتِ الـذَّمِّ
كَتْــمُ الصَّغـيـرِ عــن أبٍ وأُمِّ

كان الخديـوي إسـماعيل مُـتحمِّساً لتقـدُّم مـصر، وكان يحلـم بـأن تكـون كفرنسـا تنظيـماً وعلـماً وعمرانـاً، ولا نـزال إلى الآن نلاحـظ كيـف أنّ وسـط القاهـرة بعماراتـه الفنيـة المزخرفـة يُشـبهُ باريـس، لهـذا فقد سـارع الخديـوي بإصلاح مـا فسـد قَـدْرَ الإمـكان، فعـادت «مدرسـة الألسـن» عـام ١٨٧٨م، ولكـنْ بعـد خمـس سـنوات مـن وفـاة مُؤسِّسـها العظيـم رفاعـة الطهطـاوي، وبقـي لـه شرف التأسـيس والعمـل والإشراف عليهـا.

ومـمَّــا يُذكَـر للطهطـاوي أنـه لـمّــا صـار المشرفَ على الصحيفـة المصريـة الأولى «الوقائـع المصريـة» التـي صـدرت عـام ١٨٢٨م جعلهـا تنطـق بالعربية بعـد أن كانـت بالتركية فقـط، وهكـذا أثبـت محبتـه لأمتـه واعتـزازه بلغتهـا، وأثبـتَ

أنّ العربيــة لغــة الدولــة العربيــة القــادرة عــلى التعبــير في الأغــراض كافــة.



وكان من هموم الطهطاوي أن يُسهِّل تعليم قواعد اللغة العربية، لأنه امتلك عقلاً مُتطوِّراً لا يؤمن بالجمود، كما أنه مُعلِّم يهمه التيسير في التعلُّم، ويحبُّ التنظيم والإيجاز، لهذا حاولَ مُحاوَلةً عمليّة عبرَ كتابه «التحفة المكتبية في تقريب اللغة العربية»، وهي محاولة رائدة في تيسير قواعد العربية، إذ استخدم جداول سهلة ومبسطة، مثل جداول ضمائر الرفع المتصلة والمنفصلة، وكان وأخواتها، وكاد وأخواتها، وجدول ما يعملُ عملَ صار، ويُؤدِّي معناها، وفي نهاية الكتاب «خاتمة تتعلّق بالخط والإملاء وحسن القراءة»، وله منظومة نحوية باسم «جمال الأجرومية» عام ١٨٦٢م، وكلّ ذلك انطلاقاً من حبه للغته العربية، وحرصه على التجديد في وسائل تعلُّمها.

كان التاريخ المصري والعالمي يُقدَّم إلى الناس كمجموعة من الخرافات والمعلومات المغلوطة، لكنّ

رفاعة الطهطاوي أول من عرف تاريخ مصر والعالم استناداً إلى حقائق التاريخ من كشوف أثرية وبحوث علماء، فقدّم صورة جديدة عبرَ مؤلفاته مثل: «تاريخ قدماء الفلاسفة» الذي طُبع في بولاق عام ١٨٣٧م، و«تاريخ قدماء المصريين» عام ١٨٣٩م.

وكان سعي الطهطاوي لا يهدأ، إذْ راح يسابق الزمن في الإشراف على شتى المناشط، فهو أولُ مُنشِئ للمتحف المصريّ في ساحة مدرسة الألسن، وهو المشرف على حركة الترجمة والمُوجِّه لها، وربَّان العلم والتعليم، لأن التمدُّن عنده لا بد أن يقوم على أساسين: معنوي ومادي، حتى تتكامل بنية المجتمع.

ثمارٌ لا تنقطع

إنّ كتب الطهطاوي التي ترجمها وألّفها كثيرة، منها ما هو للكبار، ومنها ما هو للأطفال، ومنها الكتب المدرسية التعليمية، ومنها الكتب التربوية القصصية التي تفيد في التسلية النافعة لـمّا ترجم كثيراً من القصص للأطفال.

ومن أشهر كُتبه:

«قلائد المفاخر في غريب عوايد الأوائل والأواخر»، «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، «مبادئ العلوم المعدنية»، «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية»، «المرشد الأمين في تربية البنات والبنين»، «أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل»، «تاريخ قدماء الفلاسفة»، «تاريخ قدماء

المصريين»، «تعريب قانون التجارة»، «تعريب القانون المدني الفرنساوي»، «التعريبات الشافية لمريد الجغرافية»، «مواقع الأفلاك في وقائع تليماك»، «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز»، وهو آخر كتاب أَلّفَهُ الطهطاوي.

عبقريُّ الترجمة

لا تنسوا أن رفاعة الطهطاوي هو الذي افتتح جهود التعريب الأولى، فواجه الصعوبات الكبرى، لأنه يقف وحيداً أمام اللغة الفرنسية، وكان عليه أن يجتهد في الترجمة، وأن يختبر جهده الشخصيَّ في مسألة الألفاظ والمسمَّيات والأساليب والاصطلاحات، وقد اجتهد قدر استطاعته، وكان يضع في الصفحات الأخيرة من كتبه ما يشبه قاموساً موجزاً للألفاظ، وما يقابلها بالفرنسية زيادةً في الفائدة، وإليكم نماذج من التسميات التي اخترعها هذا الـمُعلّم الرائد، في مقابل مفردات فرنسية، وبعضها لا يزال مُستخدَماً إلى الآن، ليشهد بفضله على الأجيال، وقد وضعنا في الأول ما ارتآه الطهطاوي، وتتلوه التسمية الحالية أو شرحها:

«خزائن المُستغربات: المتاحف. البستان السلطاني: الحديقة العامة. المدارس السلطانية: الكليات. بلاد الأقاليم المجتمعة: الولايات المتحدة. أوراق الوقائع اليومية، ومرّة ثانية التذاكر اليومية: الصحف. المَلْعبة: السيرك. المكحَّلاتية: أطبّاء العيون. أكدمة الحكمة السلطانية: المجمع العلمي الفرنسي. الجرائحي: الجراح. مارستان السَّقَط: مشفى جرحى الحرب. جمعية الشركاء في الضمانة: التأمين. البلاد البرَّانية: البلاد الأجنبية. دكاكين العقاقيرية: الصيدليات. الخزانة السلطانية: المكتبة الوطنية. طب البهائم: الطب البيطري. الحُرِّيُّون: الديمقراطيون. الموت المدني: التجريد من الحقوق المدنية. الميقاتية: مُحدِّدو الوقت. النواميس: القوانين. بحر الثلج: المحيط المُتجمِّد. الطبائعية: علماء الجيولوجيا. تخت الدولة: المركز والعاصمة. الآلاتية: العازفون. اللعبة: التمثيلية. يوم البطالة:

العطلة. مارستان الشيخوخة والهرم: دار العجزة. مارستان السقط: ضحايا الحرب. ديوان الإحسان: الضمان الاجتماعي. الشركاء في الضمانة: التأمين. معامل سلطانية: معامل حكومية. الفتنة: الثورة. الخزانة السلطانية: المكتبة العامة. البستان السلطاني: الحديقة العامة. أكدمة تقييد الفنون الأدبية: كلية الآداب. أكدمة مستظرفات الفنون: كلية الفنون الجميلة. مكتب الفنون الظريفة: مدرسة الفنون الجميلة. الكازيطات: الصحف. أرباب ديوان الأنسطيطوت: مسؤولو شؤون الطلاب. محاسبجي: محاسب. الكرنتينة: دار الفحص الطبي. النحاتة: النحت. المتولي: الحاكم. الإرسالية: البعثة. الشّرطة: الدستور. الملعبة: المسرح. الرسل: النوَّاب. المشغول: الـمُطرَّز. السمِّيات: الحشرات السامة. اللعب: التمثيل. التشكيل: التنكُّر في الحفلات. الكرسي: الحكم. المرتبة: الطبقة الاجتماعية. فن المياه: الهيدروليك. بيت

المال: وزارة المالية. إناء القرعة: صندوق الانتخابات. بيت الصحة: المستشفى. الصناعات الظريفة: الفنون الجميلة. دار المدينة: مبنى المحافظة. الخفر الأهلي: الحرس الوطني. وقائع النوادر: الصحف الهزلية. النظَّارات الـمُعَظِّمة: الميكروسكوب. وقاية الرعد: مانعة الصواعق. إشارة الأخبار: البرقيات. أهل الجورنال: المحررون. تخت الملكة: العاصمة. الحكمة: الطب. البال العام: الرقص الجماعي. الجهادية: العسكرية. النوبة: المرة. السفرة: المائدة. القهوة: المقهى. القائمة: الورقة المجدولة. الفرجة: النزهة. العمارة: الحضارة. العوالم: النساء الـمُغنّيات. التشويش: الارتباك. المكتوب: الرسالة. البرهنة: الأدلة. رسمَ الاسم: وقع الاختيار عليه. على كيسه: على حسابه. انحطَّ عليه الرأي: استقر عليه الرأي».

ويعجب واحدنا الآن كيف استطاع الطهطاوي أن

يُؤلِّفَ كل تلك الكتب المتنوعة، المؤلفة أو المترجمة، فقد خاض في شؤون العلم والثقافة جميعاً، وكأني به يسعى إلى نشر بذور المعرفة في بلاد تستفيق من نومة قرون.

رائد المسرح

ولعل أطرف ما وصلنا من سيرة هذا العلّامة المؤسِّس أنه الرائد الحقيقي الأول للمسرح العربي، فقد نبَّه لهذا الفن بما نشره عنه في الأعوام ١٨٣٣ و١٨٣٤ و١٨٣٥م، وهو أول من ترجم عملاً مسرحياً إلى العربية، وكان ذلك عام ١٨٦٩م، فنقل بأمر من الخديوي إسماعيل مسرحيةَ (هيلين الجميلة) للفرنسيَّيْن ميلاك وهاليفي، ومُثِّلت على مسرح دار الأوبرا في القاهرة ضمن الابتهاج بافتتاح قناة السويس بعد عشر سنوات من العمل فيها، ذلك الافتتاح الذي شكّل نقلةً كبيرة لمصر، وجعلها أهم ممرٍّ مائيّ في العالم، ولا تنسوا يا أصدقائي أنه قد قُدِّمَتْ «أوبرا عايدة» في هذه المناسبة، وهي التي ألَّفها الموسيقار الإيطالي الكبير فيردي بتكليف من الخديوي إسماعيل شخصيّاً.

فليس غريباً بعد هذا أن يحظى بهذا التعريف من الأديب المصري الكبير نعمان عاشور:

«إنَّ نتاجنا الثقافي المعاصر يرجع في أصله، ويرتدُّ في منابته كافة إلى البدايات التي خطَّها رفاعة رافع الطهطاوي بكتاباته وترجماته وآرائه وأفكاره وجهوده العلمية ومواقفه النضالية، فطبع منطلق المسيرة لثقافتنا المصرية المعاصرة في كافة جوانبها، ورفاعة الطهطاوي هو الصورة البارزة الحيَّة للمثقف المصري الأصيل الذي أوجدته ظروف عصره في مفترق العديد من الطرق، والذي استطاع بفضل وطنيّته الخالصة وشخصيته الصلبة أن يشق للثقافة المصرية أسلمَ المسالك وأصحَّها وأقومَها».

روضةُ المدارس

أتعرفون يا أصدقائي ما مسك الختام في حياة الطهطاوي؟! إنه أمرٌ يتعلَّق بكم!

فكما كانت حياة الطهطاوي سلسلة من الأحلام الواقعية، فهي لا تنتهي طالما ظل حيّاً.

أحلام واقعية؟ نعم!

فالحلم حين يتحقَّق، أو وهو قابل للتحقيق، يكون واقعياً، ويظل كذلك طالما عمل الإنسان بجدٍّ، ووفَّر الوسائل ليحوِّل الأحلامَ إلى واقع.

فكَّر المُعلّم الكبير رفاعة الطهطاوي في عمل كبير يفيد أبناءه التلاميذ، ليُسرِّع من حركة الوعي ومحبة المعرفة، ولهذا أصدر أول مجلة عربية للتلاميذ سمَّاها «روضة المدارس المصرية» في ١٨ نيسان عام ١٨٧٠م،

فصـــدرت نصـف شــهرية، وطُبِعَــت (٣٥٠) نســـخةً مــن كلّ عـدد، ثـم وصـل عـدد النسـخ إلى (٧٠٠) نسـخة، وقـد تحقّـق هـذا الحلـم لـه بعـد أن اكتسـبَ خـبرة عمـر مديـد مــن الدراســة والعمــل والترجمــة والتأليــف والتدريــس، وقـد جعـل على رأسـها ابنـه عـلي فهمـي رفاعـة، فصـدرت المجلــة، وهــي تحمــل شــعارها الجميــل الــذي يتصــدَّر غلافهــا:

تعلَّــمِ العلــمَ واقــرأْ تَــحُزْ فخــارَ النّبــوَّهْ

فــاللهُ قــال ليحيــى: خُــذِ الكتــابَ بِقُــوَّهْ

وجـاء في افتتاحيـة العـدد الأول بقلم عـمِّــنا رفاعة: «وإن جُــلَّ مرغـوبِ ديـوان المـدارس المصريـة تعميـم العلـوم، وتتميــم المعــارف، وانتشــار الفنــون، وإكثــار اللطائــف ومداولتهـا بـين جميـع أبنـاء الوطـن، وتسـويتهم في الـورود عــلى مسـتعذب هــذا المـشروع الحســن، وإبــراز الوســائل

المعينة على جلب قطافها دون مشقة كبيرة، وإحراز الوسائط المسهلة لجذب أطرافها».

وهكذا عرفنا أوّل مجلة فيها معلومات متنوّعة، وفيها نثرٌ وشِعرٌ وأخبارٌ وأفكار، ركَّزت على ما يفيد الطالب، ويُعينُ الـمُعلّم، وينير عقل الأسرة.

وكان لمجلة «روضة المدارس المصرية» نخبة من الكُتّاب، وجميعهم من أعلام العلم والأدب، فمن كُتَّابها علي فكري وزير المعارف، وإسماعيل الفلكي، ومحمد قدري، وأحمد ندى، وصالح مجدي، وحسونة النواوي، وأسهم معهم أيضاً حسين المرصفي، وحمزة فتح الله، والدكتور محمد بدر، ومن الطلاب الـمُميّزين إسماعيل صبري.

كما أصدرت المجلة كُتباً ملحقةً بها مثل: «حقائق الأخبار في أوصاف البحار» لعلي مبارك، و«آثار الأفكار ومنثور الأزهار» لعبد الله فكري، و«الصحة التامة

والمنحة العامة» للدكتور محمد بدر، و«القول السديد في الاجتهاد والتقليد» لرفاعة الطهطاوي، وكان العمّ رفاعة يواصل الإشراف على المجلة والكتابة لها على الرغم من تجاوزه السبعين عاماً، ولمدة أربع سنوات، وبعد وفاته تولّى ابنه رئاسة التحرير، وقد استمرّت المجلة في الصدور حتى عام ١٨٨٢م.

لذا لمّا دنت ساعة رحيله كان مطمئناً إلى ما فعل، فقد ختم حياته بإنشاء هذه المجلة لتكون روضةً لجيل قادم، ظلَّ، وسيبقى حلمَ رفاعة الطهطاوي المثمر في الأرض.

يوم ٢٧ أيار عام ١٨٧٣م، اشتدَّ المرض على العمِّ رفاعة، وشعر بدُنوِّ أجله، فكان يطلب إلى أفراد أسرته ألّا ينسوا رسالتهم في الحياة، وأنّ عليهم أن يكملوا الطريق التي بدأها، وفي لحظة فاصلة وأليمة طلب إلى ابنه علي أن يقترب منه، فقد بدأت قواه تخونه، حتى

في الـكلام، وقـال بصـوتٍ مُـتهدِّج خافـت، لكـنْ يـملؤه الـحُبُّ والعزم:

«يـا عـلي الحبيـب! أُوصيـكَ بروضـة المـدارس المصريـة، كُـنْ عقلَهـا وعينَـها وقلبَـها، فهـي رسـالتي ورسالتُـكم للأجيـال، هـمُ الأمـل، وكلُّ مـا فعلنـاهُ كانَ مـن أجلهـم، فهـم أشـجارُ وأزهـارُ هـذه الرَّوضـة».

ومـا كاد العـمُّ رفاعـة يُـنهي كلامـه، حتـى ارتعشـت أعضـاؤه مـن الألم، ثـم هـدأ تمامـاً، وأخـذت دمـوعُ ابنـه عـلي تسـيل، فقـد انطفأت أخـيراً حيـاةُ هـذا الأب الـمَنارة.

المحتوى

بيان الصفدي

* شاعر سوري، وقاص ومسرحي للأطفال، وُلد عام ١٩٥٦م.

* عمل في دار ثقافة الأطفال في بغداد منذ عام ١٩٧٧ حتى عام ١٩٨٢م.

* عمل رئيساً لتحرير مجلة الأطفال «أسامة» (٢٠٠٣- ٢٠٠٦) وزارة الثقافة - دمشق.

* عمل خبيراً في الهيئة العامّة السورية للكتاب منذ عام ٢٠٠٦م حتى عام ٢٠١٧م.

* شارك في كثير من الندوات والمهرجانات ولجان التحكيم في مسابقات سورية وعربية للكبار والأطفال.

* دخلت أعماله في الـمُقرّرات المدرسيّة في البلاد العربية.

من أعماله للأطفال:

* حكايات جميلة: ١٠ أجزاء. دار الآداب. بيروت ١٩٧٨م.

* لوحات. شعر. دار ثقافة الأطفال. بغداد ١٩٧٩م.

* غنّوا مع دارين. شعر (بالاشتراك مع سليمان العيسى). دار إيبلا. دمشق ١٩٨٩م.

* الأغاني. شعر. اتحاد الكُتّاب العرب. دمشق ١٩٨٢م.

* التفكير بالمقلوب. قصص. اتحاد الكُتّاب العرب. دمشق ١٩٨٤م.

* مغامرات مرجان ومرجانة. شعر. دار الحدائق. بيروت ٢٠٠٣م.

* الكشكول. مختارات شعرية ونثرية. دار السائح. لبنان. ٢٠٠٥م.

* قصص للأطفال. هدية «العربي الصغير» الكويت. عدد تموز ٢٠٠٩م.

* ذات نهار. حكايات شعرية. دار الحدائق. بيروت ٢٠٠٩م.

* نسرين تنسى دائماً. قصتان. دار البحيرة. رام الله. فلسطين ٢٠١٤م.

* العراق الجميل. شعر. دار ثقافة الأطفال. بغداد ٢٠١٤م.

* أخضر أصفر. شعر. دار البنان. بيروت ٢٠١٥م.

* وطني قلبي. شعر. وزارة الثقافة. دمشق ٢٠١٥م.

* ديـوان الطفـل العـربي. ثلاثـة أجـزاء. دائـرة الثقافـة والإعـلام. الشـارقة ٢٠١٥م.

* شمس تضحك. شعر. دار البنان. بيروت ٢٠٢٠م.

* ماء الشام. شعر. وزارة الثقافة. دمشق ٢٠٢١م.

رفاعة الطهطاوي من قادة النهضة العلميّة. كان شغوفاً بالمعرفة، مُحبّاً للإصلاح، راغباً في الإحياء والتجديد، وكانَ مُعلّماً ومُربّياً، لا يرى سبيلاً لتقدُم الأمّة إلّا بالعلم يُتاحُ لكلّ النّاس ذكوراً وإناثاً، وبذلَ ما بذلَ من جهد لتحقيق هذا الغرض، ووضعَ الكُتب والمُؤلّفات التي تُعينُ على ذلك. ذهبَ إلى فرنسا في بعثة أرسلَها محمد علي لتلقّي العلوم الحديثة، فلم تَقعُدْ به همّتُهُ عندَ حدود وظيفته التي كُلّفَ بها، بل سعى منذُ أوّل لحظة إلى أن يقفَ على حضارة الغرب وثقافته، وبدأ بتعلُم الفرنسيّة، وهو على ظهر السفينة التي تحملُ البعثةَ إلى باريس، ولمّا رجعَ إلى الوطن أدركَ ما يَتطلّبُهُ البعثُ والنُهوض، فتبنّى حركةَ الترجمة المُنظّمة، وأنشأ مدرسةَ الألسُن، وبعثَ حياةً جديدة في التربية والتعليم والمسرح والصّحافة والثّقافة عامّةً.





www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب- ٢٠٢٢م

سعر النسخة ٢٥٠ ل.س أو ما يعادلها